يوحنا المعمدان

أنتوني بلوم مطران سوروج

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

كان يوحنا المعمدان سابق المسيح. هو الذي أتى قبله ليسهّل طريقه، ليجعل الطريق المعوج مستقيماً. أعتقد أن هذا هو بالضبط ما نحن مدعوون للقيام به الآن فيما يتعلق بالآخرين، لنجعل الأمر سَلِسًا لهم لإيجاد طريقهم، ولمساعدتهم على إيجاد طريق مستقيم إلى الرب.

أود أن أُفرِدَ عدداً من سِمات شخص القديس يوحنا المعمدان التي أشعر أنها يمكن أن تعلّمنا شيئاً عن وضعنا، وما يجب أن نفعله، وما هو التوجّه الفكري الذي يجب أن نكون فيه.

بادئ ذي بدء، عندما تفتح إنجيل القديس مرقس، تجد أنه [يوحنا المعمدان] يُعرَّف بصوتٍ يصرخ في البرية. لا يُعرَّف حتى على أنه نبي أو رسولٌ للّه. إنه يتماهى مع الرسالة، ويصبح متحداً جداً بكلمة الله، التي يجب عليه أن يعلنها وينقلها إلى الناس، بحيث لم يعد ممكناً رؤيته خلف الرسالة ولا سماع صوته وراء الشهادة الرعدية لروح الله متكلماً من خلاله. هذا شيء يجب أن نتعلمه. في كثير من الأحيان عندما نأتي برسالة، يمكن للناس إدراكنا نحن وربما إدراكُ رسالةٍ تأتي من خلالنا، لأننا لا نتماهى بشكل كافٍ مع ما يجب أن نقوله.

لكي نكون أصحاب هوية، يجب أن نقرأ الإنجيل، ونجعله إلى حد كبير جزءاً من ذواتنا ونجعل أنفسنا قدر الإمكان من الإنجيل. بحيث أنّنا عندما نتكلّم من بَيْنَ ثَنايَاه، باسمه، مهما كانت الكلمات التي نستخدمها، ولا أعني الآيات التي نقتبسها منه، يجب أن يكون ببساطةٍ هو (الإنجيل) الذي يتحدث ويجب أن نكون مثل الصوت، صوت الله.

الأمر الثاني هو أنه، لبلوغ تلك الحالة التي يمكن أن يتكلّم فيها ولا يمكن ملاحظته، حيث يصير الناس جميعاً قادرين على إدراكه كإنسان، تحوّلَ يوحنا تماماً إلى رسالة، إلى رؤية، إلى إعلان، يعني أنه كان إنساناً ارتضى أن يزيح كل ما هو أناني، استئثاري، يفرح بأنانية بكل ما يريد أن يتملّكه. كان له قلب نقي، وعقل صافٍ، وإرادة لا تتزعزع، وجسد مهذّب، وضبط تام للذات، حتى عندما تأتي الرسالة لا يهزمه الخوف فيجعله صامتاً؛ لا تغريه الوعود ولا تسكته، وببساطة، لا كثافة الجسد ولا غلاظة العقل ولا ثقل القلب ينبغي أن تتغلّب على لطافة الروح وقوتها المضيئة. هذا أمر مطلوب منّا أيضاً.

أنا لا أتحدث الآن عن أشكال النسك أو الطريقة التي يمارسه بها الإنسان، لكن يجب أن نتعلّم أن نكون أحراراً، ولكي نكون أحراراً، يجب أن نكتسب السيادة على أنفسنا. هذا مهم للغاية، ولتحقيق ذلك، يجب أن نتعلّم أن ننظر ونتعلم، ولكن لا أن ننظر فقط إلى الناس والمواقف، بل أن ننظر إلى الله ونتعلم ونسمع. الطاعة أمر حيوي. طاعة إرادة الله تتطلب تدريباً. إرادة الله هي جنون، وإرادة الله متناقضة. لا يمكنكم التمسك بإرادة الله لأسباب مهمة. ما يطلب الله في كثير من الأحيان هو عمل حماقة لا نجرؤ على ارتكابه لو لم يطلبه. تذكروا إبراهيم: لقد وعده الله بابن ووُلِد الابن. وُعِد أن يكون الابن بدايةً لجيل من الناس أكبرَ عدداً من رمل البحر؛

فآمن إبراهيم. ثم أمره الله أن يأخذ ابنه ويقدم له دمه قرباناً، ففعل إبراهيم. لم يقل لله: "هذا يتعارض مع وصيتك السابقة" أو "هذا مخالف لوعدك". لقد وثق بالرب وفعل ما قاله في تلك اللحظة، تاركاً الربّ يفي بوعده بالطريقة التي يعرفها.

هذا يحدث لنا أيضاً. نحن مدعوون للعمل يوماً بعد يوم، لحظة بعد لحظة، حسبَ إرادة الله المعلَنة في تلك اللحظة التي يكمن فيها الاختلاف بين الفعل المسيحي والعمل العادل في حقيقة أنّ أي فعلٍ يجب التخطيط له، ويجب ألا يتعارض فعلٌ مع فعلٍ. لا توجد عودة ولا حركة للخلف أو الجوانب؛ يجب أن يكون مساراً مستقيماً. إذا أردنا أن نتصرّف ضمن مشيئة الله، يجب أن نكون مثل المسيح الذي يستمع للكلمة ويعلنها، والذي يحدّق بانتباه إلى الله الذي يعمل، وعندما يرى، يقوم بالعمل المنضوي في مشيئة الله، في فكره، في تصوراته الغنية الخلاقة. هذا ما يجب أن نتعلمه، ولكن للقيام بذلك، يجب أن نتعلم السيطرة على أنفسنا وأن نصبح قادرين على التصرف، ليس فقط عندما نتفق، ولا فقط عندما نفهم، ولكن عندما نختلف في مكانٍ ما داخلَ آدم القديم فينا، أو عندما لا نستطيع أن نفهم إلا قول "أنا أثق بك، سأتصرف بحماقة".

للسابق فضيلة أخرى. تذكروا ما قاله: "يَنْبَغِي أَنَّ ذلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ". دورنا هو نشق طرقاً مستقيمة. دورنا هو في جعل الطرق الصعبة سلسة، ومتى فعلنا ذلك، يجب أن نتنحى جانباً، ونسمح لرب الحياة الذي نعدّ له الطريق أن يأتي بطريقة مهيبة، أو بتواضع المسيح أو ببساطة دخوله إلى أورشليم. ويجب أن نصير منسيين، لأنه ما دُمنا أننا نلوحُ في الأفق، لا يرى الناسُ المسيحَ.

هناك حالة يكون فيها غيابنا أساسياً لمجد الله وعمله مثل وجودنا في لحظة أخرى.

تذكروا الطريقة الأخرى التي بها يُعرَّف السابق. في حديثه عن نفسه يقول إنه صديق العريس - الشخص الذي يحب العروس والعريس، والذي يجمعهما معاً، فهو يحبهما لدرجةٍ يصير حامياً لحبهما وانسجامهما وسلامهما ولقائهما، ودعوتُه هي الجمع بين العروس والعريس - الإله الحي والروح الحية، ومن ثم يقف حارساً لحماية هذا اللقاء من أي تدخل، ولكن ليس ليكون طرفاً في هذا الاجتماع، بل ليكون في الخارج؛ هذا هو أسلوبه الخاص بالمحبة والخدمة. وفي نفس الوقت، يجب أن نكون مستعدين أيضاً لمواجهة مجيء الملكوت باسم العروس والعريس اللذَين نخدمهما، باسم سر المحبة هذا: انتصار الله على كل ما هو موت، شر، خطيئة، انفصال، رذالة، وما هو صغير بالنسبة لمقياس الإنسان وقامته. يجب أن نكون مستعدين لقول الحقيقة للإنسان، حقيقة الله، لا حقيقتنا.

تذكروا طريقة حديث السابق إلى هيرودس، وطريقة حديثه مع الجموع. للكلام بذلك الشكل، يجب أن نمتلك السلطة، والسلطة لا تُكتسَب لا بالرتبة ولا بالمكانة الاجتماعية. يتم اكتساب السلطة من خلال هذا الاندماج بين إرادتنا ومشيئة الله، كلمتنا وكلمة الله، حياتنا وحياة الله، نحن والله؛ عندها يمكننا أن نتكلّم، من ثمّ كلماتنا، مهما كانت قاسية، مهما كانت حادة، مهما كانت صادقة، مهما كان العمق الذي تبلغه، ومهما كانت تفصل بين الجسد والنفس، فإنها ستكون أيضاً كلمات محبة، لأن كلمة الله هي دائماً كلمة مانحة للحقيقة والنور والمحبة والحياة. وبعد ذلك يجب أن نكون مستعدين لأن لا نرى نتائج ما قمنا به. مات السابق قبل أن يرى المسيح،

وقد بلغ نهاية مهمته وأوفى بوعود دعوته، ورقد. مات بسبب رسالته، ومات لِحقِّ اللهـ، ومـات لأنـه تمـاهى مـع الرسالة والحق، لأنه كان صديقاً للعريس وكان عليه أن ينقص حتى يأخذ العريس كل المجال.

يجب أن نكون مستعدين لذلك. في كل حالة، في ما يتعلق بكل نفس، بكل مجموعة، بكـل حـدث، بكـل موقـف، هناك هذا الوقت للسابق، وهناك وقت له لينقص ويموت، ربما ليس جسدياً، ولكن في ذاكرة الناس، في قلـوبهم، في علاقاتهم. يجب أن نكون مستعدين لأن لا يتذكرنا أحد أبـداً لأن مـا بـذرَته الكلمـة غنـي جـداً، وغـامر جـداً، بحيث يمكن نسيان السابق الذي أعدّ الطريق، الذي حرث، الذي زرع. هذا هـو الفـرح. إن الفـرح برؤيـة المسـيح، الرب، ينمو إلى قامته الكاملة، ليحتل مكانته الحقيقية، ليكون الملـك والسـيد والـربّ، والأخ والمخلِّـص، وفـرح وحرية الذين جئنا إليهم قائلين: "إنه آتٍ، افتحوا له ذواتكم". هذا ما يسميه الكتاب المقدس التوبة أو التحوّل.

الآن، اسمعوا ما يقوله الكاهن للشعب في نهاية القداس الروماني: "اذهبوا". إنـه حـلّ؛ ولكـن مـا هـو الحـلّ؟ أن يقول ببساطة أن الخدمة قد انتهت، (امضوا) إلى خارج الكنيسة ، بينما تقول الجماعة بطريقة فيها شـيء مـن التورية: "الشكر لله". لا، ليس هذا. الحلّ يعني: لقد كنتم على جبل التجلي ورأيتم مجد الله، كنتم على الطريق إلى دمشق وواجهتم الله الحي، كنتم في العلية، كنتم هنا وهناك في الجليل واليهودية وجميع الأماكن السـريّة التي يلتقي فيها الإنسان بالله، والآن بعد أن أمضيتم عدة أيام معه، الآن بعد أن أُعطِيتُـم الكـثير يقـول اذهبـوا، وفرحكم لن يترككم. ما اكتسبتموه لن تخسروه أبداً مـا دُمتُـم مخلِصـين. اذهبـوا الآن، وإذا كنتـم قـد اكتشـفتم الفرح حقاً، فكيف لا يمكنكم أن تمنحوا الفرح للآخرين؟ إذا كنتـم حقـاً قـد صـرتم أقـرب إلـى الحقيقـة، فكيـف يمكنكم الاحتفاظ بها لأنفسكم؟ إذا كان قد أُضيء شيء فيكم حقـاً وهـو الحيـاة، فهـل سـتقبلون ألا يكـون لأي شخص شرارة من هذه الحياة؟ هذا لا يعنـي أن تـذهبوا وتخـبروا الجميـع بأشـياء دينيـة حصـراً أو باسـتخدام عبارات كهنوتية. هذا يعني أنه عليكم أن تخرجوا إلى العـالم الـذي هـو خاصـتكم، بإشـراق وفـرح وقـوة تجعـل الجميع ينظر إليكم ويقول "هذا عنده شيء لم يكن لديه من قبل. هل حقاً قد اقـترب اللهـ؟ إن عنـده شـيئاً لـم يكن لديه من قبـل ولا اِمتلَكـه - الفـرح، الحيـاة، اليقيـن، شـجاعة جديـدة، رؤيـة جديـدة جريئـة، أيـن يمكننـي الحصول عليها؟"

سوف يقول الناس لكم أيضاً "أنتم مجانين". جوابي في تلك الحالات، وهي كثيرة، أن أقول: "أنا مجنون، لكـن ثمَّةَ شيءٌ واحدٌ أجده غريباً. أنتم الحكماء تنادون إنساناً بالمجنون، والمجنون سعيد وحي ويشعر أنكم أمـوات؛ فلنتشارك جنوني، إنه جنون الله".

ستنطلقون الآن مع الله. اذهبـوا الآن معـه فـي كـل الـدروب وفـي كـل الطـرق. يمكنكـم أن ترقصـوا علـى جبـل التجلي، ويمكنكم أن تجلبوا محسوسية الحياة للآخرين. فليباركككم الله فيهـا بـالفرح. لا أعـرف أي كلمـات غيـر "بالفرح": امضوا بفرح، اجلبوا الفرح، وبعد ذلك ستكونون قد أحضرتم كل شـيء آخـر، لأن اللهـ هـو فـرح، هـو حياة، هو غزارة. وليباركككم الله، وليس أنتم فقط، بل الجميع مع عائلاتكم وأصدقائكم، والذين كانوا هنـا أو لـم يكونوا، والذين سوف تقابلونهم طوال حياتكم، امنحوهم شرارة.

Source: Archbishop Anthony Bloom (1971). “John the Baptist”. God and Man. Newman Press. NY. 1971. pp. 121-125